عنوان البرنامج: تفكيك خطاب التطرف
الوحدة الثالثة: حلم الصفاء
الدرس الأول: حول توظيفات حلم الصفاء
اسم المحاضر: الدكتور أحمد عبادي

حول توظيفات حلم الصفاء

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

هذا اللقاء سوف يكون تتمة للكلام الذي بدأناه حول حلم الصفاء، والذي كان ثمرة تشخيص من لدن كبار العلماء؛ علماء هذه الأمة في وسط القرن التاسع عشر، حيث إنهم وقفوا على نوع من الانديا ح والتجانف عن كثير من الأصول في التدين التي كان عليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، بفعل الضعف الذي أصاب المؤسسات العريقة من جراء السقوط في مدارج التقليد، وفي مدارك العمل بدون التأصيل لهذا العمل بالأصول والبراهين والأدلة ﴿**قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾ [النمل:64]، مما جعل الممارسة المذهبية في ذهول عن هذا البعد التأصيلي الذي كان مقارفا ومواكبا لها عبر مختلف مراحلها، جعل هذه الممارسة المذهبية تبدو كما ولو كانت تقليدا، وهي من ذلكم براء؛ لأنها كانت موصولة بالبعد الكلياتي؛ أي كليات التشريع، وبالبعد المقاصدي؛ أي مقاصد التشريع، وبالبعد السياقي؛ أي السياقات التي وقعوا عليها التشريع، كما كانت هذه الممارسة المذهبية موصولة بأصل ما جرى عليه العمل، وموصولة بالمشهور، وموصولة كذلكم بكل الاعتبارات للخلاف، والتي كانت مرعية في مختلف المذاهب، كما كان موصولا بأصلي الاستحسان واعتبار المآل وسد الذرائع وفتحها، وبالأصل الآخر الذي هو العرف.

الممارسة المذهبية إذا انفكت عن هذه الأبعاد فإنها بالفعل يمكن أن تُتلقى كما لو كانت مجرد تقليد، وهو كما سلف براء من ذلك بعيدة عنه. هذه الأمور التقطها خبراء بعض الدول الكبرى في الفترة ذاتها، ورأوا أن إضعاف الدولة العثمانية في تلك الفترة لا يمكن أن يكون فقط من المدخل

العسكري ومن المدخل الجيو استراتيجي، وقد كانت تجربة حرب الدردنيل الكبرى خير دليل على أن المدخل العسكري وحده لا يكفي، فتضرعوا بالمدخل المذهبي سواء من البعد الصفوي، أو المدخل المذهبي من الجانب الفقهي، وكانت بغداد ساعة إذن كما تدل الكتابات الشاهدة في تلك الفترة ولاسيما منها كتابات الشهاب الألوسي الذي واكب تمظهرات وعي الدولة العثمانية ساعتئذ بهذه المناورات، فأعادوا تجديد الأعظمية مرقد الإمام أبي حنيفة النعمان؛ أي الأمام الأعظم كما هو مسمى رضي الله عنه وباستحقاق من لدن أتباع مذهبه المبارك. فكان هناك وعي بهذه المناورات، وتجديد هذه الأمور كما كان تعزيز للثغور المذهبية والفقهية ولاسيما من صوب العراق في بعده الجنوبي على وجه الخصوص وكذلك البعد الشرقي الجنوبي.

فإذن كانت هناك معركة كبرى، الخبراء لدى هذه الدول الذي غاصوا في البعد التراثي لأمتنا استطاعوا اقتناص جملة من الأمور التي سوف يتم توظيفها كما لو كانت نيازك سوف تقصف بها هذه الأمة من أجل الوصول إلى أغراضهم الاستراتيجية والجيواستراتيجية والاقتصادية ساعتئذ، وكان ذلكم إما بالاستعمار أو ما شابه ذلك من تفويضات لبعض الذين كانوا في اندراج تام أو شبه تام في هذه الخطة الاستراتيجية الكبرى ساعتذ.

إذن هذا المدخل المذهبي كان من المداخل الرئيسة التي تم التضرع بها للقيام بإنجاز هذه المقاصد الاستراتيجية التي ألمعنا إلى بعضها، المدخل المذهبي كان مدخلا أساسا، وقد رأينا أن ذلكم لما تم تبنيه من قبل بعض الخلّص في المنطقة، أسس عليه مشرب مذهبي خاص، وهذا المشرب المذهبي الخاص اكتسى قوته من هذه المظاهر التي كانت بالفعل انفكاكات وانفصالات عن الأصول، وعن الكليات، وعن المقاصد، وعن كل القواعد التي أشرنا إليها آنفا، مما أعطاها قوة تشبه مقولة من قال كالإبريق حيال الصخرة: «إذا سقطت الصخرة على الإبريق فويل للإبريق، وإذا سقط الإبريق على الصخرة فويل للإبريق»، وهذا الذي أعطى كل ما رأيناه من تفكّكات للمذاهب، ونوع من التهويل من شأن هذه المذاهب الوضيئة، والتي تعتبر مدارس بحق، ولكن إذا تم شفع هذا الكسب بإدراك كل الأبعاد الكلياتية والمقاصدية، والأصولية والقواعدية التي ينبغي أن تواكب ذلكم.

وهذا هو الذي أعطى هذه القوة لمقاربة ناقدة، والتي لم تكن تعتبر المآلات؛ مآلات هذا النقد؛ لأنها كانت تعتمد مقاربة، وكما سلف، فيها البعد الفقهي، والبعد الآخر المتصل بأصول الدين، أو البعد المتصل بأصول الاعتقاد، والذي من تمظهراته كل الترسانة الكلامية التي كانت تشبه الطلاسم عند ذوي غير الاختصاص، إن ذهبنا للمواقف للعضد، أو لكتاب السعد التفتزاني، أو لكل هؤلاء الذي

كتبوا في أصول الاعتقاد بالنسبة لغير أهل الاختصاص كانت تشبه الطلاسم، مما جعل التضرع والدخول من مدخل الكسب التجديدي لبعض الكبار؛ كبار هذه الأمة، والذين تكلموا عن الأصول الأربعة، وعن المقاصد الكبرى للاعتقاد، وتكلموا عن الجوانب المتصلة بالألوهية، وبالربوبية، وبالأسماء والصفات، وبالقصد والطلب، وغير ذلك ولكن في سياقه الذي كان فعلا منتسجا مع الكسب العلمي الشاسع المبارك، والثر لأئمة الإسلام في هذا الباب الذي تم اقتناص فقط مسمى الأصول الأربعة، فإن ذلكم أصبح، وكما سلف، من التبسيط المغري لكل ذوي الأجندات المخفية، والتي كان لها بالفعل تأثيرها بحيث أدى بالشفع مع البعد الاستعماري، والبعد العسكري، والبعد العلمي والسبق في هذا الباب، والبعد الاقتصادي إلى ما كان سنة 1924 من انهيار للخلافة العثمانية، وخلّف كل ما تم الحديث عنه في الحلم الأول الذي هو الحلم المتصل بالوحدة.

إذن هذا الجانب المتصل بالصفاء كانت له كل هذه الممهدات، بالإضافة إلى ذلك كله كان هناك استعمال كما سبق ذكره لأقوال الكبار المجددين كالإمام الشافعي، حين يقول رضي الله عنه: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»، ولكن الحديث إذا لم يكن مواكبا بالفقه الثرّ والضافي الذي يمكّن من إبصار الصورة الكلية التي تستحضر السياق، وتستحضر حاجات الناس، وتستحضر الهموم، والآلام، والآمال، من أجل الاستجابة لها بالرحمة المزجاة التي تضع الآثار والأغلال التي كانت على الناس من خلال مدخل التيسير: ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾ [البقرة: 185]، فإن الاجتيال والاختطاف التبسيطي لهذا القول الذي صح عن الإمام الشافعي محمد بن إدريس رضي الله عنه يمكن أن يُستثمر يُستعمل يُستغل لأهداف أخرى بعيدة كل البعد عن المقاصد التي كانت ثاوية في الكيان المبارك للإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه، وأقوال بعض الكبار الآخرين الذين صح عنه قولهم: «هم رجال (عن التابعين) ونحن رجال»؛ أي لنا اجتهادنا، وكذلك في طبقات الفقهاء المجتهدين كابن تيمية، وابن القيم، وابن عبد الهادي، والمدرسة المقدسية بكل أئمتها الكبار الشامخين الذي ظهروا، وقبل كل هؤلاء: ابن عقيل، رحمهم الله وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خيرا.

هذا الاستغلال والتوظيف لمثل هذه المقولات في ذهول عما يحتوشها ويلفها ويحفها من المقاصد الكبرى، أدى كل ذلكم إلى نوع من التبسيط، الذي تم التضرع به ومن خلاله لنوع من التخوف ومن التنقيص من قيمة هذا الكسب الوضيء الكبير تحت مسمى الصفاء والرجوع إلى الأصول.